السيرة جمعة رقم (2)

[الحياة الطيبة من مِنَ بِعْثَةِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْهِجْرَةِ]

اَلْخُطْبَةُ الْأَولَى:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَاسِعِ الْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ، أَكْرَمَنَا بِأَنْ جَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ خَيْرِ الْأَنَامِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْمُلْكِ عَلَى الدَّوَامِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اَلذِي كَانَتْ حَيَاتُهُ كُلُّهَا قُدْوَةً لِأُمَّتِهِ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْكِرَامَ، وَمِنِ اِقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ مَا تَعَاقَبَتِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

حَدِيثُنَا سَيَتَوَاصَلُ وَإِيَّاكُمْ فِي مَوْضُوعِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَقَدْ رَأَيْنَا فِي الْجُمْعَةِ الْمَاضِيَةِ، أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ مُحَاطًا بِرِعَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ طُفُولَتِهِ وَشَبَابِهِ إِلَى بِعْثَتِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُهَيِّئُهُ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ، أَمَّا الْيَوْمَ فَسَيَكُونُ عُنْوَانُ خُطْبَتِنَا – بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى – هُوَ: حَيَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبِعْثَةِ إِلَى الْهِجْرَةِ، وَسَيَنْتَظِمُ كَلَامُنَا حَوْلَ هَذَا الْعُنْوَانِ فِي ثَلَاثَةِ عَنَاصِرَ:

الْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: مَرْحَلَةُ الدَّعْوَةِ سِرًّا، فَقَدْ بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ دَعْوَتَهُ سِرًّا حِينِ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ. وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، فَدَعَا فِيهَا أَحْبَابَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ يَتَخَيَّرُ مِنْ بَيْنِهِمُ الْأَقْرَبَ لِتَصْدِيقِهِ، وَالْأَرْجَى لِقَبُولِ دَعْوَتِهِ، وَمَنْ يَطْمَعُ أَنْ يُوَافِقَهُ عَلَى دِينِهِ وَعَقِيدَتِهِ، مِنْ دُونِ أَنْ يَجُرَّ عَلَى نَفْسِهِ وَدِينِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَيْلَاتٍ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهَا فِي تِلْكَ الْبِدَايَاتِ، فَبَدَأَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ، وَأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِ، وَأَلْصَقِهِمْ بِهِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ أَبُو بَكْرٍ اِلصِّدِّيقُ، وَمِنَ الْأَطْفَالِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَمِنَ الْعَبِيدِ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ، وَمِنَ الْمَوَالِي زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنَّ السِّرِّيَّةَ مُهِمَّةٌ جِدًّا عِنْدَ بِدَايَةِ أَيِّ أَمْرٍ مُهِمٍّ، لِأَنَّهَا تَحْفَظُ الْمَشْرُوعَ فِي مَهْدِهِ، وَتَقِيهِ مِنْ عُيُونِ الْحَاسِدِينَ، وَمِنْ كَلَامِ الْمُغْتَابِينَ وَالنَّمَّامِينَ، رَوَى الطَّبَرَانِيُّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: اِسْتَعِينُواْ عَلَى إِنْجَاحِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُل ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ. فَالْمُسْلِمُ عِنْدَمَا يَكُونُ فِي بِدَايَةِ أَيِّ مَشْرُوعٍ لَا بُدَّ أَنْ يُحِيطَهُ بِالسِّرِّيَّةِ، وَلَا يَكْشِفَهُ إِلَّا لِأَحْبَابِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، وَالَّذِينَ يَنْتَظِرُ مِنْهُمُ الْعَوْنَ وَالْمُسَاعَدَةَ، أَوِ الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةَ.

الْعُنْصُرُ الثَّانِي: مَرْحَلَةُ الدَّعْوَةِ جَهْرًا، رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى

الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ – حتَّى اجْتَمَعُواْ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُواْ: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ... وَقَدِ اسْتَمَرَّتْ مَرْحَلَةُ الدَّعْوَةِ جَهْرًا عَشْرَ سَنَوَاتٍ إِلَى الْهِجْرَةِ، فَصَدَعَ ﷺ بِالْحَقِّ، وَعَرَضَ الْإِسْلَامَ فِي الْأَسْوَاقِ وَالطُّرُقَاتِ، وَفِي النَّوَادِي وَالسَّاحَاتِ، فَاسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ الْقَلِيلُ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا الْكَثِيرُ، وَأَعْلَنُوا حَرْبًا ضَرُوسًا ضِدَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي سِيرَتِهِ: فَوَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجَعَلُواْ يَحْبِسُونَهُمْ وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَبِرَمْضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ... وَلَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ ﷺ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذَا الْإِيذَاءِ، خَاصَّةً فِي (عَامِ الْحُزْنِ)، وَهُوَ الْعَامُ الْعَاشِرُ مِنَ الْبِعْثَةِ، حَيْثُ تُوُفِّيَتْ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ وَعَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، فَكَانَ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ هَدَفًا سَهْلاً لِاعْتِدَاءَاتِ الْمُشْرِكِينَ، وَاتَّهَمُوهُ بِالسِّحْرِ وَالْكَذِبِ وَالْجُنُونِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنَّ النَّجَاحَ يُولَدُ مِنْ رَحِمِ الْمِحَنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ. وَلِلَّهِ دَرُّ الشَّاعِرِ الْقَائِلِ:

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ

اَلْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّـــالُ

نَفَعَنِي اللَّـهُ وَإِيَّاكُمْ بِكِتَابِهِ الْمُبِينِ، وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُصْطَفَى الْكَرِيمِ، وَأَجَارَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْمُهِينِ، وَجَعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنَ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ آمِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اَلْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، صَلَّى اللَّـهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنِ اِقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُسْلِمُونَ:

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: مَرْحَلَةُ انْفِتَاحِ الْآفَاقِ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ هُمُومًا وَأَحْزَانًا لَا تَنُوءُ بِهَا الْجِبَالُ، وَبَعْدَ أَنْ يَئِسَ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ أَهْلِ مَكَّةَ، قَرَّرَ أَنْ يَبْدَأَ بِعَرْضِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْقَبَائِلِ الَّتِي تَحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ لَقِيَ نَفَرًا

مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَرَادَ اللهُ بِهِمُ الْخَيْرَ، رَوَى ابْنُ هِشَامٍ فِي سِيرَتِهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرَ قَالُواْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللهُ بِكَ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمُ اللهُ عَلَيْكَ فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ، ثُمَّ انْصَرَفُواْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَدْ آمَنُواْ وَصَدَّقُواْ. وَبِسَبَبِهِمْ اِنْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَدِينَةِ، فَقَرَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُهَاجِرَ إِلَيْهَا مَعَ أَصْحَابِهِ، وَعُمْرُهُ ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً، بَعْدَ أَنْ قَضَى ثَلَاثَةَ عَشَرَ سَنَةً فِي الدَّعْوَةِ بِمَكَّةَ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْأَنْصَارُ بِالْفَرَحِ وَالتَّكْبِيرِ، وَبِذَلِكَ وَجَدَتْ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ قَاعِدَةً تَنْطَلِقُ مِنْهَا إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، تَحْقِيقًا لِقَوْلِ رَبِّ الْعَالَمَيْنِ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا. وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنَّ الشِّدَّةَ لَا تَدُومُ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَيْأَسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَتِلْكَ سَنَةُ اللهِ تَعَالَى حَتَّى مَعَ رُسُلِهِ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا، قَالَ سُبْحَانَهُ: حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا. وَلِلْحَدِيثِ بَقِيَّةٌ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

عِبَادَ اللهِ؛ اتقوا الله وَجَدِّدُوا الْعَهْدَ وَالْعَزْمَ عَلَى السَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِ وَهَدْيِهِ، وَحَاسِبُوا النَّفْسَ عَلَى مَدَى الْتِزَامِهَا بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

أَلَا فَصَلُّواْ وَسَلِّمُواْ – عِبَادَ اللهِ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ – عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْأَمِينِ وَالسِّرَاجِ الْـمُنِيرِ؛ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا تَامَّيْنِ دَائِمَيْنِ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ الْـمُتَّبِعِينَ لِسُنَّتِهِ وَهَدْيِهِ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، خُصُوصًا مِنْهُمُ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَانْصُرِ اللَّهُمَّ مَنْ وَلَّيْتَهُ أَمْرَ عِبَادِكَ الْـمُؤْمِنِينَ؛ وَلِيَّ أَمْرِنَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، نَصْرًا عَزِيزًا تُعِزُّ بِهِ الدِّينَ، وَتَرْفَعُ بِهِ رَايَةَ الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَحْفُوظًا بِحِفْظِ كِتَابِكَ، مَكْلُوءاً بِعَيْنِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ، وَفِي جَنْبِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، مَوْفُورَ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِوَلِيِّ عَهْدِهِ. اَللَّهُمَّ ارْحَمْنَا وَارْحَمْ وَالِدِينَا، وَارْحَمْ مَنْ سَبَقَنَا بِالْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ، عَلَى سَنَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ، اَللَّهُمَّ أَحْيِنَا عَلَى سُنَّتِهِ وَأَمِتْنَا عَلَى مِلَّتِهِ، وَاحْشُرْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَتِهِ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْـمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ.